(لعنة غزّة) تطارد شارون وجيشه

١٣ قتيلاً في صفوف جيش الاحتلال خلال ٣٦ ساعة

غسان دوعر

من الساعة الأولى من صباح يوم الثلاثاء ١١ أيار/مايو، بدأت أرتال دبابات الميركافاه وناقلات الجند (إم ١١٣) وجيبات الهامر والجرافات العسكرية الصهيونية بالانطلاق من بؤرة الإرهاب في مستوطنة «نتساريم» جنوب مدينة غزة نحو حي الزيتون، تتقدمها قوات من المستعربين المتنكرين بملابس فلسطينية وسيارات محلية تحت غطاء كثيف من نيران الرشاشات الثقيلة بمساندة مروحيات «الأباتشي». وكانت رئاسة أركان الجيش الإسرائيلي وقيادة القوات الإسرائيلية في قطاع غزة تتوقع أن جنودها سينفّذون مهمة تقليدية تتعلق بهدم منازل عدد من الشهداء الفلسطينيين وتدمير ورش لصنع ذخائر محلية، من عبوات ناسفة وقذائف وصواريخ القسام ثم يعودون إلى قواعدهم في المستوطنة سالمين، بالاعتماد على قوة النيران المستخدمة وضخامة القوة المهاجمة. ولكن توقّع قيادة الاحتلال تحوّل إلى أزمة سياسية عسكرية لحكومة الإرهابي شارون.

استعدادات مسبقة

قيادة التشكيلات العسكرية لفصائل المقاومة الفلسطينية من «كتائب الشهيد عز الدين القسام» و«كتائب الأقصى» و«سرايا القدس» كانت تعي من خلال حالات التوغل السابقة المشاكل التي يمكن أن تواجه المجاهدين في تصدّيهم للقوات الغازية، فوضعت مجموعة من الخطط والإجراءات لمواجهة ذلك. ففيما يتعلق بالقوات الإسرائيلية الخاصة وفرق الموت التي تندفع عادة في مقدمة التوغل للسيطرة على أسطح المباني المرتفعة واستخدامها في عمليات القنص، كلّفت المقاومة مجموعات بالاشتباك مع هؤلاء القناصة بالأسلحة الأتوماتيكية والتعامل معها بهدف إشغالها عن مساندة القوة الرئيسية من مظليين وهندسة. أما بالنسبة لمشكلة المروحيات التي ترافق عادة المهاجمين وتفتح نيران رشاشاتها الثقيلة تجاه منازل الفلسطينيين وتتعمد إيقاع عشرات الإصابات بين الأهالي تمت مواجهتها من خلال فرز مجموعات فدائية خاصة لإطلاق النار باتجاهها ومنعها من الاقتراب ودفعها للتحليق بعيداً عن ميدان المواجهة الرئيس.

الطرق التي تسلكها الدبابات والآليات العسكرية الإسرائيلية في التوغلات في أي منطقة باتت معروفة ومحصورة في منطقة ضيقة محدودة المعابر والمداخل، وهذا ما دفع فصائل المقاومة الفلسطينية إلى الاستفادة من أهمية هذا المعطى الميداني في وضع خطة التصدي للتوغل الإسرائيلي في حي الزيتون في ذلك اليوم. فتمّ تفخيخ هذه المداخل وزرعها بالعبوات الناسفة الجانبية ونشر عدد من المجاهدين يحملون قذائف «آر بي جي» و«البتار»، لإعاقة تقدّم الآليات وحصرها داخل مصيدة العبوات الناسفة التي كانت من نفس النوعية التي استخدمت في تدمير دبابات الميركافاه خلال جولات سابقة وبخاصة في شهر شباط/فبراير وأيار/مايو وأيلول/سبتمبر ٢٠٠٢ وآذار/مارس ٢٠٠٣، وقال العدو إنها كبيرة الحجم (٥٠ كيلوغراماً فما فوق..).

وإن كانت تقارير خبراء ومحلّلي وسائل الإعلام الصهيونية تشير إلى أن حي الزيتون بات معقلاً كبيراً ورئيساً لحركة المقاومة الإسلامية (حماس)، إلا أن الحقيقة أيضاً أن كل التشكيلات العسكرية للفصائل الفلسطينية تصدّت بشكل شمولي لجنود الاحتلال واشتبكت معهم لأكثر من ستّ ساعات. وبدت فعالية الأسلحة الرشاشة والصاروخية والعبوات الناسفة التي استخدمها المجاهدون وبخاصة من «كتائب الشهيد عز الدين القسام» الذين تمكنوا من خلال تفجير عبوات أرضية جانبية من إصابة وإعطاب ثلاث دبابات وعدة جرافات عسكرية، كما تمكنت «كتائب الشهيد أبو علي مصطفى» من قنص جندي صهيوني كان فوق بناية آل خويطر مما أدى إلى إصابته بجراح، وأعلنت «سرايا القدس» عن تفجير عبوة ناسفة استهدفت دبابة إسرائيلية وشوهدت وهي تحترق وتتصاعد منها ألسنة الدخان.

تدمير المصفحة

المعركة تركزت في شارعي الشيخ أحمد ياسين وصلاح الدين الأيوبي وربما كان لهذين الاسمين دلالاتهما عند المجاهدين، مما زاد من عزيمتهم وشحذ الهمم في مواجهة العدو. وقد أسفرت المعارك والإرهاب الصهيوني عن استشهاد أربعة وجرح أكثر من سبعين. وكان من بين الشهداء عامر الجرجاوي وفادي نصار من القادة الميدانيين لكتائب عز الدين القسام اللذان أبليا بلاء حسناً، لم يوقفه سوى قيام العدو بإطلاق قذائف الدبابات باتجاههما أثناء قيامهما بزرع العبوات الناسفة حولتهما إلى أشلاء.

ولئن كان العدو عمد إلى إخفاء خسائره البشرية في المواجهات التي خاضها مع المجاهدين، إلا أنه لم يستطع إخفاء نتائج الكمين الذي نجحت إحدى مجموعات «كتائب الشهيد عز الدين القسام» في تنفيذه ضد رتل الدبابات وناقلات الجند التي تم استدراجها. فبعد أن تم إطلاق صاروخ «بتار» باتجاه إحدى ناقلات الجند وإعطابها في مكان زرعت فيه عدة عبوات جانبية تم تفعليها على جانبي الآلية العسكرية، والتي كانت تقل ستة من جنود سرية الهندسة التابعة للواء «جفعاتي» مما أدى إلى تدميرها بالكامل وتناثر حطامها وأشلاء جنودها الستة على مساحة واسعة. واعترفت مصادر إسرائيلية أن الانفجار تضاعفت شدته بفعل كميات المواد المتفجرة التي كانت بداخل ناقلة الجند التي يستخدمها هؤلاء الجنود في تدمير ونسف المنازل والمنشآت الفلسطينية. ولم يدرك قادة الاحتلال حجم الكارثة التي حلّت بهم إلا عند عرض صور الأشلاء بين أيدي المجاهدين، مما أثار الخوف في نفوس باقي القوات فهربت دون أن تستطيع جمع هذه الأشلاء.

وقد عرضت الفصائل الفلسطينية صوراً لتلك الأشلاء وحطام الناقلة وأجزاء من الدبابات المعطوبة. طبعاً هذا الأمر انعكس ارتباكاً كبيراً في أداء قيادة العدو بكيفية التعاطي مع هذا المستجد، فلجأت إلى الأمريكيين والأوروبيين ثم الحكومة المصرية والنواب العرب في الكنيست والصليب الأحمر الدولي لإجراء اتصالات مع السلطة الفلسطينية وإبلاغها تهديدات وإنذارات بضرورة تسليم الأشلاء، مستفيداً من كونه الأقوى ميدانياً واستمرار محاصرته حي الزيتون ومنعه سيارات الإسعاف من التحرك ونقل الجرحى، نجحت الوساطة المصرية في ترتيب نقل الأشلاء إلى الجانب الصهيوني.

مشكلة إسرائيلية

لكن هذا لم يخفِ الهزيمة، ذلك أن النقاش حول مستقبل قطاع غزة عاد من جديد للبروز على الساحة السياسية الإسرائيلية، وذلك عبر استطلاعات الرأي العام الإسرائيلي الذي يقبل بأغلبية خطة الانسحاب من القطاع، والمظاهرات الحاشدة في الساحة الرئيسية بتل أبيب، مطالبة بحسم خيار الدولة العبرية بالتخلص من الكابوس أو (لعنة غزة) كما أسموها. وتفاقم مأزق جيش الاحتلال، بصفعة قوية أخرى بعد أقلّ من أربع وعشرين ساعة، حين نجحت فصائل المقاومة في نصب كمين